

تجليات الحرب عند الأمير عبد القادر
الاستراتيجية العسكرية والمبادئ
(الجيش والحرب للدفاع عن الدولة والوطن)

Manifestations of War in the Mind of Emir Abdelkader
Military Strategy and Principles
(The Army and War in Defence of the State and the Homeland)

الأستاذ الدكتور: ودان بوغفالة
جامعة ابن خلدون - تيارت

- تاريخ النشر	- تاريخ القبول	- تاريخ الإرسال
2025/07/05	2025/06/30	2025/06/28

- Summary:	- الملخص:
I addressed the subject of the army under Emir Abdelkader in my contribution to the beautiful book: Ministry of National Defence, The Algerian Army: An Eternal Epic, Ministry of National Defence	تناولت موضوع الجيش عند الأمير عبد القادر في مساهمتي في الكتاب الجميل: وزارة الدفاع الوطني، الجيش الجزائري الملحمة الخالدة، منشورات وزارة الدفاع الوطني، مؤسسة الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر، 2024.

Publications, People's Printing House of the Army, Algiers, **2024**.

Algeria's role in the western Mediterranean basin began to decline at the end of the 18th century, with the deterioration of the general situation in the country, the worsening of economic conditions, the deterioration of social and health conditions, and political unrest, especially with the outbreak of numerous local revolts that weakened the Beylik system of government. and increased its troubles until **1826**, such as the revolutions of the Derkaouis and the Tijaniyyah.

On the other side of the Mediterranean, European rivalry and international conflict over expansion in North Africa intensified, and the enemy from Europe kept a close eye on Algeria and developments there from various angles, drawing up plans and maps for invasion and occupation. France took it upon itself to do so, especially after the failure of Napoleon Bonaparte's campaign in Egypt (1798-1801 AD). It took

بدأ دور الجزائر في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط يتراجع منذ نهاية القرن الثامن عشر- للميلاد، وتدهور الوضع العام في البلاد، وتفاقمّت الظروف الاقتصادية، وساءت الأحوال الاجتماعية والصحية، واضطربت الأوضاع السياسية، خاصة مع اندلاع العديد من الثورات المحلية التي أنهكت نظام الحكم في البايك، وزادت من متاعبه إلى غاية عام 1826م، مثل ثورات الدرقاوين والتجانيين.

وفي الضفة الأخرى من المتوسط، احتدم التنافس الأوروبي والصراع الدولي على التوسع في شمال القارة الإفريقية، وكانت عين العدو من أوروبا ترصد دولة الجزائر وتطور الأوضاع فيها من زوايا متعددة، وترسم مشاريع وخرائط الغزو والاحتلال. وهو ما تولت فرنسا القيام به، خاصة بعد فشل حملتها برئاسة نابليون بونابرت على مصر (1798-1801م)، فانفردت بالمشروع الاستيطاني، واعتدت على سيادة الأمة الجزائرية، ودولتها القائمة بكل أركانها الأساسية، ومؤسساتها السياسية والدستورية.

sole responsibility for the settlement project and attacked the sovereignty of the Algerian nation, its existing state with all its fundamental pillars, and its political and constitutional institutions.	
- Keywords:	- الكلمات المفتاحية:
Prince Abdelkader; Algeria; military strategy; recruitment and mobilisation; combat system.	الأمير عبد القادر؛ الجزائر؛ الاستراتيجية العسكرية؛ التجنيد والتعبئة؛ المنظومة القتالية.

- مقدمة

لقد نزل الجيش الفرنسي بميناء سيدي فرج في تاريخ 14 جوان 1830م غربي مدينة الجزائر، بقيادة الجنرال (De Bourmont) دي بورمون ورعاية الملك الفرنسي (Charles X) شارل العاشر، فواجهه الجزائريون بكل حماس دفاعا عن الأمة الوطن، وتوافدوا إلى مدينة الجزائر من كل الجهات. التقت قوات المقاومة الشعبية الجيش الفرنسي في سطاوالي يوم 19 جوان 1830م، ولم ينجح الجزائريون في هذه المعركة لصد العدوان الذي امتد إلى مدينة الجزائر، فأخضعها يوم 5 جويلية 1830م. لكن فرنسا وجدت صعوبة كبيرة في احتلال باقي أجزاء التراب الوطني، وكان عليها أن تواجه مقاومة شعبية وطنية، منظمة و متميزة بقيادة الأمير عبد القادر (1832-1847م)، الذي بعث الدولة الجزائرية الوطنية الحديثة بمقتضى نظام شرعي دستوري وأرسى قواعدها الشعبية من رحم المجتمع بموجب عقد اجتماعي سياسي هو

المبايعة، وأسس جيشا بمواصفات تنظيمية وفنية عالية، يخوض به حربا لاستعادة الوطن وسيادة دولته.

- بناء الجيش الوطني وعصرنة تشكيلاته وهياكله

أولى الأمير منذ البداية أهمية كبيرة للمؤسسة العسكرية، وهو ما انعكس بوضوح في الميدان. ويتجلى هذا الاهتمام كذلك من خلال كتاب "وشاح الكتائب وزينة الجيش المحمدي الغالب" الذي ألفه أرويلة قدور بن محمد، أحد كتّاب الأمير. وقد ركّز بشكل خاص على تنظيم الجيش والارتقاء به، وترتيب أقسامه وقياداته، وتحديد صلاحيات ومسؤوليات المعنيين ورتبهم، بما يحاكي الجيش الاحترافي في الوقت الحاضر. كما أقدم على إنشاء المصانع الحربية وتأمين إنتاج الأسلحة والذخيرة العسكرية بمختلف أنواعها. علاوة على ذلك، كان الأمير يستعين بالمتطوعين من القبائل المناصرة من الفرسان والمشاة، فيلتحقون به عند الضرورة بما يملكون من أسلحة، ويعودون إلى مواقعهم بعد خوض المعارك، ويبقون على استعداد تام ورهن إشارته، وكان يُقدر تعدادهم بنحو ثلاثة وخمسين ألف جندي.¹

وبخصوص آليات التجنيد والتعبئة ومنظومة الرتب لهذا الجيش، فقد دعا الأمير عبد القادر الجزائريين إلى الانتساب إلى الجيش الرسمي للدولة الجزائرية، وصار قوام الجيش النظامي بتقدير عام في ثماني مقاطعات حوالي ثمانية آلاف جندي، ألفي خيال، ومائتين وأربعين طوبجي (رماة المدافع). وتمثلت شروط الانتساب والالتحاق بالوحدات العسكرية، في الإقبال على التسجيل الرسمي لكل مواطن بالغ حر، جنسيته جزائرية وديانته إسلامية، يمتلك كفاءة بدنية تؤهله للالتزام بقوانين الجيش المحمدي، والامتثال لتعليمات قاداته.

أما منظومة الرتب المقررة حسب نصوص قانون الجيش المحمدي فهي الآغا، وكانت مهمته هي قيادة الكتيبة العسكرية، والباش خوجة بوصفه كاتبا رئيسيا، وكان الشاوش يتولى المراقبة، وباشا

العرب اعتبر مُعلم الحرب. وعادت أدوار الجوق الوطني لرئيس الطبل الذي كان يُعرف بالباش طمبورجي والباش طرنبيطة، وانفرد سنجاك دار بحمل الراية، وتكفل السيفون بسلّاح الجند. وأُسندت إلى رئيس الصف صلاحيات تفقد العسكر، والإشراف على قيادة الفصائل التابعة للكتيبة، فيما تقلّد وظيفة الكاتب والمساعد، كبير الكاهية أو الخوجة. واختص القضاء العسكري بالنظر في كل المخالفات العسكرية والحكم فيها مثل حالات العصيان والتولي، والإهمال والغياب، والإخلال والغش. وكانت العقوبة المقررة هي إما السجن لمدة معينة حسب المواد القانونية لكتاب "وشاح الكتائب..."، وإما العزل والشطب النهائي.

كان الجيش الجزائري على عهد الأمير عبد القادر يتوفر على جهاز طبي عسكري، أشرف عليه الطبيب أبو عبد الله الزروالي بمعية مساعدين وممرضين، ومصالح فرعية في المقاطعات. فكان الطب العسكري يعتني بالطب الشعبي، وينشر ثقافة الوقاية من الأمراض، وخاصة المعدية منها، ويتولى علاج المصابين في المعارك، فيقدم لهم الإسعافات الضرورية، لتوقيف النزيف الدموي وتضميد الجروح، ويجري العمليات الجراحية الحربية للحالات الخطيرة، مثل معالجة الكسور، وإزالة الرصاصات القاتلة.

تشكل جيش الأمير الذي خاض به الحرب ضد فرنسا من الحرس الأميري؛ وهو الحرس الرئاسي، أو ما يُعرف حاليا عند بعض الدول بحرس النخبة، كان يرافق الأمير، ويسهر فرسان الخيام على حمايته، وحراسته شخصا بأسلحة خفيفة غالبا، وأخرى ثقيلة في بعض الأحيان. وانتظم الجيش النظامي الاحترافي في كتائب وسرايا المشاة والخيالة والرماة، فكان منهم "الطوبجيون"؛ وهم رماة المدافع الذين تجمعوا في أفواج سداسية كانت تتناوب على تشغيل وتحريك سلاح المدفعية، يُسندهم الفرسان الذين ألّفوا كتائب وسرايا الخيالة، وحملوا

السيوف والمسدسات اليدوية كأسلحة متاحة الاستخدام. أما وحدات العسكر المحمدي، والمتمثلة أساسا في كتائب وسرايا المشاة، فكانت تمتلك بصفة فردية سلاح البندقية للرمي والقنص من مسافات قريبة.²

- بروتوكول الحرب: المنظومة القتالية في الدفاع والهجوم

اهتدى الأمير عبد القادر إلى إقرار خطة عسكرية مُحكمة في مقاومته للاستعمار الفرنسي، واستفاد من التجارب التاريخية والخبرات العالمية، فبنى القلاع والحصون وشيّد الأسوار. لقد كان يعتمد أسلوب المواجهة المباشرة في معركة الحسم أحيانا، مثل مهاجمة الحصون والأرتال العسكرية، ومحاصرتها وتطويقها، ويلجأ أحيانا أخرى إلى الحرب الخاطفة والعمليات السريعة، وينفذ ذلك في اشتباكات يحدد زمانها ومكانها، ويحقق أهدافها إما على المدى القصير، وإما على المديتين المتوسط والطويل.

وكانت فكرة التفاوض السياسي وربح الوقت لاسترجاع القوة والتنظيم العسكري، والانسحاب التكتيكي لجر العدو واستدراجه إلى كمائن وفخاخ، أو النجاة منها، من أكثر الأفكار حضورا وفعالية لدى جيش الأمير. لقد أولى هذا الأخير عناية خاصة لإدارة ومعالجة المعطيات والأخبار الواردة عن العدو، وحلفائه في الداخل والخارج. وتفعيل قنوات الاستشعار والمراقبة والاستطلاع، ومتابعة الأوضاع وتطورها، ورصد الخطط والردود المناسبة لها عسكريا وسياسيا ونفسيا ومعنويا.

لقد مثل الدين الإسلامي، وتراث الأمة الجزائرية الحربي عبر التاريخ، المرجعية الأساسية للأمير في مبادئه القتالية وخططه العسكرية. ومنها تكتيك الاستطلاع والتضليل، وحملات المطاردة والترهيب والردع، وغزوات الكر والفر، والهجوم المباغت ونصب الكمائن، وأشكال التضيق وقطع الدعم اللوجستيكي وكبح جماح الخصم المندفع.

بنى الأمير عبد القادر القواعد العسكرية واعتنى بالحصون الدفاعية لسد المنافذ والمسالك والطرق المعلومة أمام حركة العدو. وكان يروم تجميد التوسع الاستعماري ومحاصرته للانقضاض على خصومه، وعدم تسهيل عملية الاستيطان وتجنيد فلول المرتزقة؛ هم من أصحاب النفوس الضعيفة والخونة والعملاء الذين انحازوا إليه وتخلوا عن الوطن.

لقد رسم الأمير خطا دفاعيا في المنطقة التلية، وهو عبارة عن مجموعة من القواعد والقلاع العسكرية التي تم تأسيس البعض منها حديثا، وتثبيت البعض الآخر وترميمه مما كان قائما في المناطق التلية من الغرب إلى الشرق، وخاصة في مدن تلمسان ومعسكر (1832-1835م) وقلعة بني راشد، ومليانة (1834-1840م) والمدية (1835-1840م)، وشرشال والبويرة (برج حمزة)³.

وانتبه الأمير إلى أهمية تكثيف الخطوط الدفاعية في عرقلة سير ومرور أرتال العدو الفرنسي نحو المناطق الداخلية والصحراء، ومطاردة المقاومة والانتقام من قواعد الدعم والمساندة التي توفرها القبائل المتحالفة. فأقبل على نشر التحصينات والمواقع الدفاعية بالمدن والأرياف، في ربوع الهوامش السفلى للهضاب العليا الداخلية، ما وراء السلسلة الجبلية للأطلس التلي إلى غاية تخوم الأطلس الصحراوي.

برز من بين هذه المراكز الاستراتيجية في الاتجاه الجنوبي حصن تافراوة الواقع في سبدو جنوب مدينة تلمسان، إضافة إلى حصن مدينة سعيدة في الغرب. كما تُعد قاعدة تاقدامت المنيعه بموقعها الاستراتيجي جنوب شرق مدينة تيارت وعلى بُعد عشرة كيلومترات منها، إحدى النقاط البارزة في هذه المنطقة.

والتي تعززت بحصن بوغار الحربي جنوب مدينة المدية عاصمة التيطري ومعسكرات بسكرة. كما أقام الأمير باتجاه الشمال الشرقي بُرجا للمراقبة في تازا بالسلسلة الجبلية للونشريس، وحاميات عسكرية أخرى

أسفل جبل زكار بأبي خرشفة بمليانة للتحكم أكثر في الطرق المؤدية إلى الغرب والصحراء.

- العاصمة المتنقلة للاتصال الحربي والتنسيق الأمني: "الزماله" رمزية الوطن والدولة

عندما تمت مبايعة الأمير في 27 نوفمبر 1832م، اتخذ من مدينة معسكر مقراً له وأعلنها عاصمة للدولة الجزائرية الحديثة.

إلى غاية نهاية عام 1835م، تاريخ حرقها من طرف الفرنسيين. وبعد ذلك، توجهت أنظار الأمير إلى قاعدة تاقدامت في عمق الهضاب العليا الغربية غربي مدينة تاهرت التاريخية، واتخذها عاصمة جديدة للدولة (1841-1836م) وانتهى دور هذه العاصمة البديلة هي الأخرى باستيلاء الفرنسيين عليها في 1841/05/26م.⁴

أمام هذه التطورات المحبطة، قرر الأمير مواجهة التحدي بإطلاق مبادرة تأسيس العاصمة المتنقلة "الزماله". وقد جاءت فكرتها لتتيح له الانتقال بحرية من موقع حربي إلى آخر حسب مقتضيات الظرف والحاجة الملحة. شكلت هذه العاصمة قاعدة انطلاق لتنفيذ العمليات العسكرية من مواقع يختارها بدقة وفق استراتيجيات مدروسة. كانت الزماله عبارة عن تجمع محكم التنظيم، يضم مجموعة من الخيام المرتبة بشكل دائري، ما يعكس التماسك الوطني للقبائل المتحالفة التي اختارت نهج المقاومة وعملت على تقويته. وتم تقسيمها بوضوح حسب الاتجاهات الأربع، بحيث ضمت كل منها العائلات بطواقمها الكاملة، بالإضافة إلى الكوادر المدنية والعسكرية، تحت إشراف قائد يتولى إدارة شؤونها. بلغ عدد سكان هذه العاصمة ما يزيد على ثلاثين ألف نسمة.

بناء على هذه المستجدات الحربية والاستراتيجية الجديدة، وقع اختيار الأمير على منطقة عين طاقين في الجنوب الشرقي لمدينة تيارت

لتنصيب العاصمة "الزمالة" (1841-1843م). ويعتبر هذا المركز الجديد نقطة استراتيجية تُشرف على ممرات تنقل القبائل، ومنطقة سهبية بمحاذاة الواد الطويل والمراعي، وأسفل السفوح الجنوبية لجبال بوغار، وغير بعيد عن حصونه وخلافته في المدينة برئاسة محمد بن علال الذي كان يزوده في بريد عاجل "مكاتب" بكل المستجدات والتحركات المشبوهة في ناحيته.

وعقب غدر الطابور العسكري بقيادة الدوق دومال ابن الملك الفرنسي لويس فيليب بهذه العاصمة في 16/05/1843م، والاستيلاء على جزء منها في تطور مفاجئ غير متوقع، تحوّل الأمير إلى أقصى الحدود الغربية، وجمع معسكراته في دائرة جديدة بديلة يتمتع فيها نسبيا بحرية الحركة والتنظيم بعيدا عن أعين خصومه. وحطت العاصمة المتنقلة رحالها في الشط الغربي شمال شرق وجدة ببني زناسن، وشرع الأمير في شن هجومات خاطفة أرهق بها أعداءه من الفرنسيين والقبائل الموالية لهم، وألحق بهم عدة هزائم موجعة متتالية.

- الهزائم الحربية لفرنسا ومرارة الانكسار: جيش الأمير عبد القادر انتشى بالنصر

حقق الأمير عبد القادر سلسلة من الانتصارات المهمة خلال مقاومته العسكرية ضد الفرنسيين وحلفائهم في الميدان. تنوعت هذه الانتصارات بين نتائج فورية بعد المعارك وآثار استراتيجية وسياسية طويلة الأمد. بدأ الأمير تجربته العسكرية الأولى إلى جانب والده في معركة خنق النطاح، التي دارت أحداثها الرئيسية قرب مدينة وهران خلال شهري ماي وجوان من عام 1832م، ضمن سلسلة من الاشتباكات. في أولى معاركه، أبدى الأمير شجاعة ومهارة لافتة في القتال، مما دفع والده الشيخ محي الدين لتسليمه قيادة الراية في المعركة التالية. بفضل ذلك، تمكن الأمير من تحقيق نصر كبير أجبر

القوات الفرنسية على التراجع وتكبدت هزيمة قاسية، مع خسائر مادية وبشرية كبيرة.

قال الأمير عبد القادر:

ألم تر في خنق النطاح نطاحنا *** غداة التقينا، كم شجاع لهم هوى
ومن أشهر المعارك الضارية التي خاضها الأمير، وانتصر فيها
بشهادة الفرنسيين واعترافهم في تقاريرهم ومذكراتهم، معركة المقطع
بتاريخ 1835/06/28م. ويعود الفضل في ذلك إلى خطة عسكرية
محكمة استباقية نفذها الجيش الجزائري في حوض مغلق من
المستنقعات والأوحال بين مدينتي سيق والمحمدية. وحدثت هذه
المعركة في مضيق الهبرة الذي احتلته قواته وانتظرت وصول فيالق
جيش تريزل إليه، والقادم من سيرات.⁵

تحركت كتائب الأمير المنتشرة في مناطق مختلفة، وأحاطت
بالجيش الفرنسي لتباغته من الخلف، مما أدى إلى انسحاب القوات
الفرنسية متفككة ومهزومة نحو آرزيو، وهي تحصي خسائرها التي
بلغت خمسمائة قتيل، مئات الجرحى، وعتاد حربي هام شمل مدافع
وعربات. لم تقبل باريس بهذه الهزيمة الثقيلة، فبادرت بتنفيذ تغييرات
واسعة في القيادات العسكرية الفرنسية. تم استبدال الحاكم العام
للجزائر درويت إيرلون بالجنرال كلوزال، كما تم تعيين الجنرال دارلانج
بدلاً من تريزال قائد وهران في شهر يوليو عام 1835م.

وتلقى الجيش الفرنسي بعد عشر سنوات كاملة وضربات موجعة
كثيرة، هزيمة أخرى مدمرة خلّدتها المصادر الفرنسية نفسها، وكان
ذلك في معركة سيدي إبراهيم بتاريخ 23-26 سبتمبر 1845م. ونشبت
هذه المعركة قرب ضريح سيدي إبراهيم بالمقاطعة الإدارية المسماة
حاليا "السواحلية" بالغزوات شمالي تلمسان.

تمكن الأمير من القضاء على الحامية، وعلى رئيسها العقيد (François Joseph Lucien de Montagnac) فرنسوا مونتنيك ورفاقه من ضباط وجنود بلغ عددهم حوالي مائتين وخمسين شخصا (250) حسب الإحصائيات الفرنسية، كما وقع في الأسر العشرات منهم، ولم ينج من المتحصنين بضريح سيدي إبراهيم بعد خروجهم منه، والبالغ عددهم حينئذ اثنين وثمانين (82) جنديا سوى إحدى عشر شخصا (11).⁶

وبعد يومين فقط من هذا الانتصار الباهر، اعترض الأمير رفقة خليفته محمد البوحميدي كتيبة عسكرية فرنسية بقيادة الضابط مارين (Marin)، فاستولى عليها بسهولة بسيدي موسى. وكانت هذه المجموعة متوجهة إلى قاعدة عين تموشنت لتدعيمها بالجنود والعتاد والذخيرة، فاستسلمت له دون مقاومة، وظفر بها منتشيا بالنصر المؤزر، وغنم محتويات قافلتها.

تحول الأمير من مقاطعة تلمسان نحو الونشريس الغربي في حركة سريعة، وفاجأ الفرنسيين بقيادة الجنرال يوسف بمعركة بتاريخ: 1845/12/23م في خنق تامدة شمالي غربي تيارت، بجبل بوشطوط بعد مرور ما يقارب السنتين على نقل العاصمة إلى الحدود الغربية. وذلك في إطار سلسلة من المعارك الخاطفة التي استهدف فيها عدوه لإرباكه وتشتيت قواته. شارك في هذه المواجهة القائد الشريف بومعزة، فانتعش الاستقطاب السياسي بتثبيت حضور الأمير وسلطته، وتعززت أكثر روح المقاومة الوطنية والثقة بالنفس لدى الجزائريين، ونشرت الصحافة الفرنسية أخبار المعركة في اليوم الموالي، وعددت الخسائر من قتلى وجرحى فرنسيين.

- تحديات الحرب والحاجة إلى السلاح: نحو بناء مصانع حربية محلية وإنتاج الذخيرة

لم يتمكن الأمير عبد القادر من عقد صفقات توريد الأسلحة والمعدات الحربية من الخارج بكفاية وعلى الوجه المطلوب. وذلك، بسبب اضطراب العلاقات الدولية في الحوض الغربي للمتوسط، وحدة التنافس الأوروبي وتداخل المصالح، وبروز فرنسا كقوة مُهيمنة في المنطقة. لقد تحركت الدبلوماسية السياسية للدولة الجزائرية وأجرت عدة اتصالات رسمية وودية خاصة من طرف وزير الخارجية ميلود بن عراش عام 1838م. وحاول رؤساء الوفود والبعثات من وزراء وقناصل وقائمين بالأعمال في البلدان العربية والإسلامية والدول الأوربية تأمين حاجيات السلاح، وجلب المختصين في صناعته⁷.

كما امتدت المفاوضات كذلك إلى الوسطاء والوكلاء الأوربيين والأمريكان بطنجة ومديرد وجبل طارق، وخاصة مع دول إيطاليا وإسبانيا وانكلترا وأمريكا. وعرض الأمير في مراسلاته الدولية على الانكليز إمكانية الاستثمار في بعض الموانئ مثل تنس، بشرط تبادل المصالح وتوفير السلاح والذخيرة الحربية للجيش الجزائري. واغتنم الأمير ظروف معاهدي ديميشال (Desmichels) 1834م والتافنة مع فرنسا 1837م لشراء السلاح من مخازن فرنسا ذاتها بوهران، كما كان يوفر أيضا كميات معتبرة منه بما يغنيه من الفرنسيين في مناسبات مختلفة مثلما حدث ذلك عند جلاء فرنسا عن تلمسان بموجب معاهدة التافنة 1837م، أو على إثر اشتباك يوم 07/03/1846م وتوجيه الغنائم التي نالتها السرايا عبر قافلة مخصصة إلى أولاد نايل.

تضاعف الطلب على السلاح والتسليح مع تزايد عدد المتطوعين والمُجندين في صفوف المقاومة، فقرر الجيش الجزائري منذ وقت مبكر الاعتماد على الصناعة المحلية ذات شارات ورموز وعلامات جزائرية، وتطوير ورشاتها ومصانعها على ضوء التقنيات المتطورة.

وهذا لأن السلاح الأبيض والسيوف المعدنية والخناجر تراجعت صناعتها، وفعالياتها في الحروب، وحلت محلها صناعة الأسلحة النارية المؤثرة.

استفاد الأمير تحت إشراف خليفته أحمد الطيب بن سالم الدبيسي بمقاطعة زواوة من الذخيرة كالخناجر والسيوف؛ والتي كانت تُنتجها ورشات التصنيع الحر بمنطقة أزفون وغيرها من القرى مثل بني فراوسن وبني يني. أما الأسلحة النارية، فاختصت بصناعتها قبيلة بني عباس جنوب بجاية منذ الفترة العثمانية. وكان الأمير قد شرع سنة 1834م بعد عامين من استرجاع زمام سلطة الدولة الجزائرية في بناء مصنع حربي بمدينة معسكر، لإنتاج الذخيرة الحربية والأسلحة النارية وصيانتها مثل الخراطيش والملح والبارود وهيكل البنادق. وظلت ورشات الإنجاز تشتغل بحيوية، إلى غاية اقتحام الفرنسيين للمدينة في 1835/12/06م، وإشعال النيران فيها وتخريبها من طرف الحاكم العام الماريشال كلوزال. وبعد عودة مدينة معسكر إلى سلطة الأمير بموجب معاهدة التافنة 1837/05/31م، عاد النشاط إلى المصنع، وكان يباع بعض إنتاجه في سوق المدينة، ويُعرض يوميا كما هو الحال بالنسبة لغبرة البارود. وكان يجتمع بالمدينة بعض المختصين في شأن المدفعية، ويتباحثون في مسألة جلب قطع غيار الآلات التي يحتاجونها في العمل من تلمسان إلى تاقدمت.

ولما استعاد الأمير عبد القادر نفوذه على مدينة تلمسان بموجب معاهدة التافنة 1837م، ولى عليها خليفته محمد البوحميدي الولهاصي (ت. 1847م)، وشيّد مصنعا حربيا بقلعة المشور جنوب المدينة أسفل هضبة لالة ستي. وتم تزويده بمستلزمات التصنيع من فرن لصهر الحديد، ومنفاخ إيقاد النار والاحتفاظ باللهيب، والقوالب التي تُفرغ فيه المعادن لتشكيلها وصياغتها، وعجلات الدفع والتحريك. وكان مصنع تلمسان يستخدم الفحم النباتي والفحم الحجري، ويستعين

بالبغال في تحريك بعض الآلات. وتمكن عماله من صنع الخرطوش وعدة قطع من المدافع الحديدية والبرونزية، ومقذوفاتها النحاسية و"الكور" على شاكلة وأحجام المدافع الأوربية، وإنتاج مادة البارود ومطاحنه خاصة لدى القبائل المجاورة.

توجه جيش الأمير نهاية عام 1835م نحو الشرق بعد سقوط عاصمته بمعسكر، واختار منطقة استراتيجية؛ هي تاقدامت غرب تاهرت لنقل مصنعه الحربي وتطويره بها. فبنى في الجهة الشرقية منها مخازن المُعدّات الحربية، والمواد الأولية الضرورية للصناعة الحربية مثل الحديد والرصاص والنحاس والكبريت والملح. ونصّب اليد العاملة الخبيرة بالتقنيات الأوربية الحديثة التي استقدمت بالمفاوضات الثنائية، وتم توظيفها بموجب عقود⁸.

صار هذا المصنع يُنتج البارود والفشاك (الأنبوب الذي يحتوي على البارود أو الرصاص)، وماسورة البنادق (الجعبة: الأنبوب الفولاذي) وبشطولات "مكحلة" مزخرفة ومزينة بخطوط، كانت تُسلم لفرسان الخيول فقط نظرا لإنتاج عدد محدود منها. وكان للأسلحة البيضاء هي الأخرى نصيب من الإنتاج مثل السيف والخنجر. وتوقف هذا المصنع عن الإنتاج الحربي بعد دخول الفرنسيين بقيادة الجنرال بيجو للعاصمة تاقدامت في 1841/05/25م وإحراقهم لها. لقد انفتح الأمير على الأجانب في تشييد مصانعه الحربية وتشغيلها، واستعان بخبراء المعادن لتسهيل تحضير المادة الأولية للصناعة الحربية مثل ملح البارود والكبريت، واشتهر مصنع مدينة مليانة كغيره بمصهرة الحديد والرصاص والنحاس، وصناعة البارود والبنادق وسبك المدافع. وكانت تجلب إليه المعادن في شكلها الخام من مناجم المناطق المجاورة مثل زكار وجنوب تازا.

حارب الأمير عبد القادر عدوّه الفرنسي بتفوق، وأثبت خلال مراحل الحرب بأنه كانت تسكنه بامتياز الروح الإنسانية في أسمى

معانيها، ونبل مبادئها وقيمها. فهو الذي كان يتأفف من نصب الكمائن إلا ما اضطرته إليه ظروف الحرب أحيانا، وكان يوصي خيرا بالأسرى، وعدم الإساءة إليهم، وكان يُطلق سراحهم حين يعجز عن تأمين حياتهم، ويأمر بالعفو عن الصبيان والنساء والشيوخ، وأهل الحرف والصنائع، ورجال الدين من القساوسة والرهبان. استنكر ما كان شائعا في الحروب من النهب، وقطع الرؤوس والتمثيل بها، فأبطل العمل بها، وقال ذات مرة: "لم أولد لأكون محارباً"، والحرب في تقديره هي شر مفروض تعادي كرامة الإنسان.

وعندما وجد الأمير نفسه عام 1847م محاصرا من كل جهة، تجرّع مرارة الوضع، وقرر تعليق حربه بشروط مُسبقة، تم الاتفاق حولها في مفاوضات ثنائية سيادية باسم شرف الدولة الفرنسية، غير أن البحرية الفرنسية اعتقلته، وغدرت به متوجهة إلى التراب الفرنسي، وتنكرت لتعهد الحماية الدبلوماسية "للمُستأمنين" بموجب نص الاتفاقية الدولية المُلزمة؛ التي أخفى الجيش الفرنسي وثائقها الرسمية المُوقعة، وروجّ بديلا عنها في برقياته لفرية "الاستسلام" بهتاناً⁹.

- قائمة المصادر والمراجع

(أ)- باللغة العربية

- أرويلة قدور بن محمد، وشاح الكتائب وزينة الجيش المحمدي الغالب، تحقيق محمد بن عبد الكريم، دار الوعي، الرويبة، 2017.
- الأمير عبد القادر الجزائري، مذكرات، تحقيق محمد الصغير بناني وآخرون، شركة دار الأمة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2010.
- الأمير محمد بن عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، شرح وتعليق ممدوح حقي، دار النهضة العربية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، 1964.
- بوروية رشيد، "القلاع والحصون والمؤسسات العسكرية التي أنشأها الأمير"، مجلة الثقافة، ع75، ماي - جوان 1983، ص87-101.
- تشرشل شارلز هنري، حياة الأمير عبد القادر، ترجمة وتعليق أبو القاسم سعد الله، دار الرائد، الجزائر، 1982.
- حرب أديب، التاريخ العسكري والإداري للأمير عبد القادر الجزائري، 1847-1808، دار الرائد للكتاب، الجزائر، 2004.
- سعيدوني ناصر الدين، عصر الأمير عبد القادر الجزائري، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت، 2000.
- العربي إسماعيل، الأمير عبد القادر الجزائري مؤسس دولة وقائد جيش، وزارة الثقافة، الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر، 2007.
- قداش محفوظ، "جيش الأمير عبد القادر، تنظيمه وأهميته"، ترجمة حسن بن مهدي، مجلة الثقافة، ع72، 1983، ص51-74.

(ب)- باللغة الأجنبية

- BAUDENS Lucien, Relation historique de l'expédition de Tagdempt, Germer-Baillièrre, Paris, **1841**.
- BELLEMARE Alex, Abd-el-Kader, sa vie politique et militaire, librairie de L. Hachette et CIE, Paris, **1863**.
- BERBRUGGER Adrien, Voyage au camp d'Abd-el-Kader, à Hamzah et aux montagnes de Wannourhah (province de Constantine), en décembre **1837** et janvier **1838** (Extrait de la Revue des Deux-Mondes, n° **15** du **15** août **1838**), Toulon ; **1839**, pp. **5-57**.
- KADDACHE Mahfoud, L'Armée d'Abdelkader, quelques repères sur son organisation et son importance, Majallat Ettarikh, numéro spécial, **1983**, pp. **7-31**.
- ORLEANS Henri (Duc d'Aumale), Soumission d'Abd-el-Kader, rapport du gouverneur général au ministre de la guerre, les généraux comandants supérieurs **25** décembre **1847**, Impr. de Bintot (Besançon), pp. **1-7**.
- PEGUES, Jacques Louis, Souvenirs militaires algériens. Combat de Sidi-Brahim et défense héroïque du marabout, septembre **1845**, Imprimerie BaldachinoMacon-Viguiet, Alger, **1887**.
- ROCHES Léon, Dix ans à travers l'Islam, **1834-1844**, Perrin et Cle, Libraires-éditeurs, Paris, **1904**.
- YVER Georges, Correspondance du capitaine Daumas, consul à Mascara **1837-1839**, Alger: Adolphe Jourdan, Imprimeur-Librairie de l'université; Paris : Paul Geuthner, libraire, **1912**.

- الهوامش:

- 1- قدور بن محمد أرويلة، وشاح الكتائب وزينة الجيش المحمدي الغالب، تحقيق محمد بن عبد الكريم، دار الوعي، الرويبة، 2017، ص166.
- 2- KADDACHE Mahfoud, *L'Armée d'Abdelkader, quelques repères sur son organisation et son importance*, Majallat Ettarikh, numéro spécial, 1983, pp.7-31.
- 3- Adrien BERBRUGGER, *Voyage au camp d'Abd-el-Kader, à Hamzah et aux montagnes de Wannourhah (province de Constantine), en décembre 1837 et janvier 1838* (Extrait de la Revue des Deux-Mondes, n° 15 du 15 août 1838), Toulon; 1839, p.43.
- 4- الأمير محمد بن عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وتاريخ الجزائر، المطبعة التجارية، الإسكندرية، 1903، ج1، ص104، 279.
- 5- Alex BELLEMARE, *Abd-el-Kader, sa vie politique et militaire*, librairie de L. Hachette et CIE, Paris, 1863, pp.113-115.
- 6- Jacques Louis PEGUES, *Souvenirs militaires algériens. Combat de Sidi-Brahim et défense héroïque du marabout, septembre 1845*, Imprimerie BaldachinoMacon-Viguier, Alger, 1887, pp.9-34.
- 7- Georges YVER, *Correspondance du capitaine Daumas consul à Mascara 1837-1839*, Alger : Adolphe Jourdan, Imprimeur - Librairie de l'université; Paris: Paul Geuthner, libraire, 1912, p.150.
- 8- Lucien Baudens, *relation historique de l'expédition de Tagdempt*, Germer-Baillière, Paris, 1841, pp. 5-6.
- 9- Henri d'Orléans (duc d'Aumale), *Soumission d'Abd-el-Kader*, rapport du Gouverneur général au ministre de la guerre, les généraux comandants supérieurs 25 décembre 1847, Impr. de Bintot (Besançon), pp. 1-7.